



صحيح أن سوريا لمدة أربعين عاماً من حكم هذه المنظومة الديكتاتورية التي استولت على البلاد وسيطرت عليها بقبضة من حديد قد بدت متماسكة ومتربطة اجتماعياً، ولم تظهر السمات الطائفية والمذهبية والقومية التي تقسم أبناء البلد الواحد وتمزق الجسد السوري، ولكن ذلك التماسك كان ضعيفاً واهنأ، لماذا؟ لأن عوامل التماسك والترابط التي جمعت مختلف مكونات المجتمع السوري قد بُنيت على أساس الخوف والذعر من بطش النظام الذي سحق معارضيه، وبالتالي لم تُبني على أساس التماسك الإنساني الاجتماعي الذي يجمع أبناء البلد الواحد ويلغي عوامل التقسيم من خلال المساواة والعدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروة.

المنظومة العسكرية والعلقانية الأمنية كانت على الدوام الوسيلة الوحيدة التي حافظت على تماسك النسيج الاجتماعي السوري، وجعلته ثابتة ومنعه من الانهيار، وبالتالي فإن القمع الذي مارسته مؤسسات النظام العسكرية والأمنية استطاع أن يخلق حالة وهمية لوحدة وطنية تجمع المكونات المختلفة والمتنوعة في المجتمع السوري.

التنويم المغناطيسي كمبدأ قائم على السيطرة الكاملة على العقل البشري وتغييب للإرادة الحرة، فيه يصبح الإنسان مملوكاً مُسيطراً عليه، مُنفِّذاً لجميع الأوامر الصادرة وكأنه روبوت مبرمج، حيث يتم التحكم بتفكيره وقيادة سلوكه وأفعاله. في إحدى تجارب التنويم المغناطيسي يذكر المحل النفسي الفرنسي "بير داكو" حالة امرأة أجريت لها عملية جراحية ولكن تم تنويمها مغناطيسياً قبل العملية حيث قام الطبيب برسم مربع وهمي على بطن المريضة وأوحى لها الطبيب: (سوف أخذ بطنك والتخدير سيحدث داخل المربع الذي رسمته وداخل هذا المربع لن تشعر بأي ألم) وتمت العملية دون الإحساس بأي ألم.

والأقليات في سوريا حالها حال الإنسان المنوم تنويمًا مغناطيسياً، فال أقليات على الرغم من أنها أكثر الطبقات فقرًا وضعفًا وتعرضًا للاضطهاد والتهميش لكنها الأكثر ولاءً وطاعة له! وهي الطبقات الأكثر خشية لأي تغيير والأشد معارضه لأي قادم جديد. لا بل ترى أشد الناس فقرًا هم من يعارضون التغيير! وأشد الناس بؤساً هم من يقفون في وجه التغيير! كلما ازداد قمع النظام وبطشه ترى الإخلاص له قد ازداد بشكل عجيب! كلما قشت وحشية النظام ترى الوفاء له قد بلغ أقصى الدرجات! كلما اشتد استبداد النظام وظلمه ترى الطاعة في أقصى أشكالها! لتسمع المستعبد المقهور يقول: إنه الوطن.. إنه الوطن..! وكان مطالبة السوري بالحرية والكرامة ستفقد وطنيتها! وكان رفض السوري لفسادٍ بلغ الذرى سيجرده هويته! وكان وقوف السوري في وجه من نهب خيرات سوريا ونفطها وغازها وقمحها وقطنها وبحرها وسمائه وهوئها أربعين عاماً ستنسف أخلاقه! وكان صرخة السوري في وجه مجرم سفاح سفك الدم السوري وأوغل في القتل ستدرك المثل العليا والقيم السامية!

النظام الديكتاتوري على الرغم من أنه قضى على حقوق الأقليات وطمس وجودهم القومي والفكري والسياسي واللغوي، وفرض ثقافة الحزب الفائد للدولة والمجتمع واعتمد أيديولوجية شوفينية متخصصة تقصي الآخر عن المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية، إلا أن قسماً كبيراً من أبناء الأقليات لازال يعتقد أن هذا النظام هو حاميها وسبب بقاءها واستمرارها! أربعون عاماً عاشتها الأقليات في كنف نظام سحقها معنوياً واجتماعياً وثقافياً وأذاقها القهر والعبودية والذل كانت كفيلة بأن تُنْقَدُها الحافز للحرية.

في سوريا لم توجد مؤسسات مدنية وسياسية تضمن حقوق الأقليات وتحقق الحرية والعدالة للشعب، بل وجد سيد واحد مطلق وملايين العبيد التي تهتف بالشعارات، وكل شيء مسيطر عليه بواسطة سلطة أمنية بمنظومة استخباراتية تطورت عبر السنين.

لقد استطاع نظام الملكية المقدس الذي ركز السلطة بأيدي فئة قليلة تحكمت بمفاصل الدولة وسيطرت على مؤسساتها من أن يبشعروا بين أبناء الأقليات بأنّ نظاماً سياسياً أكثر إحكاماً وبطشاً هو الحل الأفضل الذي يحقق لهم مساواة نسبية مع الغالبية الساحقة لأفراد الشعب.

جلّ ما أعطاه النظام للأقليات كان بعضاً من الحقوق الدينية، ليربط هذه الأقليات بمؤسسات دينية، رجالها خاضعين لمراقبة أجهزة الأمن والمخابرات، يأترون لأمرهم وينصاعون صاغرين منفذين، فكان تأليه الحاكم وسيطرة رجال الدين من شأنه أن يفرض ثقافة القطيع على الأقليات وبالتالي حق استقراراً نسبياً في المجتمع السوري.

فكان الدعاء للقائد من على منابر المساجد وهياكل الكنائس المكمل والمتمم للطقوس المقدسة، هذا التأليه للديكتاتور خلق (منظومة نفاق) أساسها رجال الدين، مهمتها ممارسة التكفير والنبذ لكل من يتجرأ على نقد القائد الذي استمد سلطته من الإله نفسه، ونشر حالة الطاعة والخنوع بين أفراد الطائفة الذين تشنقا وتقوقعوا داخلها، ولি�تم صبغ أفرادها بأفكار موحدة، مرغمين على العيش في عواطف مكبوتة ومقتندين للجرأة والمخاطرة والمطالبة بالتغيير وليصبح هاجسهم الوحيد هو التوجس والقلق من القائد المجهول الذي سيقتحم أمنهم مع أي قادم جديد هذا الأمان النفسي الذي عاشوه لسنوات طويلة.

لتبقى الأقليات سجينه أفكار وقرارات وأحكام مشايخها ورجال دينها، وبذلك تلعب الأقليات دورها الذي رسمه لها نظام خلق العبودية والتبعية الطائفية والتزمت الديني ليقيّد ويعرقل أي محاولة للتغيير وبناء مجتمع حر ديمقراطي.

منذ البداية قدّمت هذه المنظومة الديكتاتورية نفسها على أنها الحامي الوحيد لحقوق الأقليات، فسوقت أبواب النظام الإعلامية صورة الحراك الثوري على أنها قائمة الأساسية على الطائفية وأن هذا الحراك ما هو إلا تهديدٌ لوجود الأقليات وإقصاء لهم، مستعينة بالتجربة العراقية والدول التي شهدت ربيعاً عربياً بوصول الأحزاب ذات الأيديولوجيا الدينية للحكم، فدأبت أجهزة الأمن على طرح الشعارات الطائفية "العلوية بالتابوت وال المسيحية لبيروت..." لترسخ لدى أبناء الأقليات هذه الفكرة، لتعقبها سلسلة تفجيرات في أحياط مكتظة بأقليات دينية "تفجيرات جرمانا والقصاع وباب توما والسليمانية..." معتقدة أنها نجحت في مرادها خاصة بعد أن وقعت أعداد من أبناء هذه الأقليات ضحية هذا الخداع والتضليل.

لكن عندما يُكسر حاجز الخوف من هذه المنظومة الأمنية العسكرية التي بطشت بالشعب لمدة أربعين عاماً ونشرت الذعر والخوف بين أفراده، وعندما تُنزع أقنعة العلمانية التي تقنّع بها النظام وأخفى وجهه المتطرف الفاشي الحقيقي، يتضح مدى ضآلّة الولاء الذي كانت تكنّه مختلف مكونات المجتمع لهذا النظام، ولتظهر مدى هشاشة الاستقرار الذي نعمت به سوريا خلال هذه السنوات الطويلة من حكم الآلة العسكرية.

لقد أثبتت الأحداث خلال أكثر من عشرين شهراً من ممارسات النظام القمعية مدى وعي الشعب السوري الذي تجاوز به الحدود القومية والطائفية التي حاول النظام تعويقها باستهدافه في عملياته الحرية لأحياء وقرى تقطنها غالبية معروفة لتحقيق غايات لم تخفي على أحد، فلا وجود لمجموعات إرهابية مسلحة إلا في تلك الأحياء والقرى! ليدمّرها ويمسحها عن وجه الأرض، وليقتل ويهجّر ويشرد أبناء تلك المناطق بشكل منهج، ناهيك عن فرض حصار خانق قطع فيه الماء والكهرباء والغاز والوقود والدواء والغذاء والاتصالات، أرققتها ارتکاب شبّيحة لمجازر بحق الأطفال والنساء في مناطق التماس بين قرى الساحل والداخل، محاولاً جرّ الشعب لفتنة طائفية، ولি�تم إظهار ثورة الشعب السوري العظيمة المطالب بالحرية

والعدالة على النظام الفاشي وكأنها حرب أهلية، مستفيدة من العجز الدولي الواضح الغير قادر على استصدار قرار أممي موحد ضد هذا النظام، مع حصوله على تأكيدات مستمرة بعدم وجود تدخل عسكري، وحصوله على الدعم السياسي واللوجستي من روسيا وإيران.

لقد اقتنعت الأقليات الآن بأن ما يجري في سوريا ليس تمراً من فئة معينة مقهورة، وليس تصرفات لمجموعات إرهابية متطرفة ذات إيديولوجيا دينية تريد تدمير الدولة المدنية والعلمانية لنشر الأفكار السلفية، بل هو ثورة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من جوهر جديد يحقق حكومة ديمقراطية منتخبة وعدالة اجتماعية وحقوق محفوظة ومساواة واعتراف بالآخر وطي ملف الاعتقال السياسي وحرية التعبير والأهم هو تحقيق الحرية والخلاص من العبودية التي لطالما فرضها من يحكمون الدولة على جميع مكونات الشعب السوري.

الأقليات الآن تريد لحكومة الاستعباد والقهر هذه أن تذهب للجحيم، فقد زالت الغشاوة التي تشكلت منذ عشرات السنين عن أعين أبناء الأقليات ليروا أن هذه الحكومة ماهي إلا طغمة مستبدة لا تحمل أدنى ذرة من الوطنية، دمرت وحرقت هذا البلد الجميل من أجل أن تبقى في السلطة والحكم لتستمر في نهب وسرقة موارد الشعب.

الأقليات الآن قررت مغادرة الكهف المظلم الذي أسرهم بين جدران الكسل والخمول والإتباع والخنوع والرضوخ. فأي وطني وأي حب للوطن يمكن أن يحمله من صدّ رأس الشعب السوري بالدفاع عن الوطن والأرض والشرف مقاومة الاحتلال وهو يقصف ليل نهار مدن وشوارع وقرى سوريا وينتهك أعراض نسائها بجيشه الذي بناء الشعب السوري بعرق جبينه؟!.

أي انسجام وتماسك اجتماعي بين مكونات النسيج الوطني يمكن له أن يتجسد على أرض الواقع في ظل قهر واستعباد يقتص الرؤوس ويهجّر الملايين.

وأية أكاديميات حرية خرجت ضباط وطيارين يقودون طائرات لم تتصف وتدمر ببراميل الحقد والموت سوى أقدم مدن التاريخ وأكثرها عراقة، ولم تفتّق قذائفه ومدافعيه سوى أجساد الصغار ونسائها.

لقد اقتنعت الأقليات بأن المسؤول الأول والأخير عن هذا الجحيم الواقع المزري الذي تعيشه سوريا هو النظام وحده وليس أي طرف آخر.

فلا للظلم ولا للاحتقار، لا لسنوات الاعتقال والأغلال، لا للنظام العائلي فسوريا ليست مزرعة ملكية عائلية لأحد، ونعم للحرية وتقرير المصير، كلمات قالتها الأقليات كما قالتها غالبية الشعب السوري منطلقة من تصور وطني تنتفي فيه الديكتاتورية وتزول للأبد.

نهض الشعب السوري بمكوناته المتنوعة من تحت الركام، رقام العبودية والذل والقهر، خرج أبنائه من بين ألسنة نار فوهات المدافع وبراميل المتفجرات التي حرقـت ودمـرت مـدنـنا وـقرـانـا لـتـصـرـخـ فيـ وجـهـ الطـاغـيـةـ:

توقف أيها المستبد فالسوسي حُرّ، بأي حق جعلته عبـداـ، كـيفـ تـصـبـعـ سـورـياـ مـلـكاـ لـكـ ولـعـائـلـتكـ وـعـمـرـ سـورـياـ آـلـافـ السـنـينـ، سـورـياـ التـيـ رـفـدتـ الحـضـارـةـ إـلـنـسـانـيـةـ مـنـذـ فـجـرـ التـارـيـخـ، كـيفـ تـكـوـنـ أـنـتـ حـامـيـ الأـقـلـيـاتـ وـالـأـقـلـيـاتـ هـيـ شـعـبـ سـورـياـ الأـصـيـلـ ضـارـبةـ جـذـورـهـ أـعـمـاقـ التـارـيـخـ، تـعـاـيشـتـ مـعـ بـعـضـهـاـ مـنـذـ آـلـافـ السـنـينـ فـيـ حـبـ وـسـلـامـ.

سـئـمـ الشـعـبـ السـوـسـيـ وـمـلـ خـطـابـاتـ الـقـهـقـهـاتـ، وـعـرـىـ نـفـاقـ وـزـيـفـ مـحـورـ المـقاـومـةـ وـالـمـمـانـعـةـ وـالـبـطـولـاتـ. فـجـرـ الـحـرـيـةـ قـدـ بـزـغـ رـغـمـ أـنـفـ الطـاغـةـ، صـحـيـحـ أـنـهـ يـحـمـلـ فـيـ مـخـاضـهـ آـلـامـ وـمـآـسـيـ شـعـبـ عـظـيـمـ نـكـلـ بـهـ وـعـذـبـ، وـلـكـ هـنـاكـ حـقـيـقـةـ وـاحـدـةـ أـكـيـدـةـ هـيـ أـنـ عـصـرـ الـدـيـكـتـاتـوـرـيـةـ قـدـ اـنـتـهـيـ وـولـيـ زـمـانـ الـعـبـودـيـةـ إـلـىـ الـأـبـدـ.

المصادر: